حفظ السنة بين العلم والعمل

بقلم: خالد الترك

هالني ما سمعت ممن يثق بالقرآن قائلاً: لا أثق بالسنة ،

بدأ الشك في الضعيف، ثم في الحسن، ثم في الصحيح، ثم في أئمة الحديث، ثم في السنّة كلها. تلكم هي خطوات الشيطان.

وسرى الداء – للأسف – إلى بعض الشباب الملتزم، وبلبلت الشبهات أفكاره، وزلزلت معتقده، فجلسْت معهم وسردت لهم ما أَعانني الله عليه من الأدلة، فزالت الشبهات والحمد لله . ثم طلبوا مني أن أكتب لتعم الفائدة ويحمي الشباب من هذه الشبهات.

وسأضرب مثلاً تمهيداً قبل البدء، فأقول مستعيناً بالله :

رجل صالح رحل وكان ذا سيرة طيبة، معروفة لأهل بيته، وجيرانه, وأصحابه، وقد شهد له الجميع – بمن فيهم خصومه – بالأخلاق الحسنة.

كيف يتحدّث الناس بسيرته يا تُرى؟ وكيف ينقلون أقواله وأخباره ؟

خبر أجمع عليه الجميع, وخبر آخر نقله عنه كثيرون, وقصة حدّث بها مَن كان معه فقط في هذا الوقت, وقول نقله عنه بعضٌ مِن أفراد أسرته, وخبر ذكره واحد من خاصته, وتصرُّفٌ نقلته عنه زوجته, وآخر نقله الصغار. وهكذا نُقلت سيرة كاملة بتفصيلاتها. هذا مِن طرف النّاقلين, فماذا عن المتلقّين ؟

سمع الناس بقصة هذا العبد الصالح بعد أن انتشر خبره وذاع صيته, فكان الناس أمام الأخبار والأقوال أصنافاً, فمنهم مَن لم يصدق إلا ما أجمع الناس عليه, وبعضهم أخذ بقول الأكثرية, وبعضهم صدق رجلاً واحداً يثق به ثقة كاملة, وآخر صدّق الصغار الأبرياء, وآخر شك في خبر وأيقن بآخر, وهكذا اختلف الناس أمام تلقيهم الأخبار والأقوال من حيث العدد والثقة.

ثم جاء مَن بعدَهم, فصنّفوا الأخبار المنقولة عن هذا الرجل حسب درجات التلقي والاطمئنان, وعلموا أن هناك قوماً ادّعوا أنهم سمعوا من الرجل أو من أصحابه, فبالغوا في بعض الأخبار من حبهم له، وآخرون دسّوا بعض الأقوال ونسبوها له، تشويهاً لسيرته.

أخذ هؤلاء المصنّفون الحيطة والحذر, وجعلوا الأخبار درجات وفْق مصادر التلقي حرصاً منهم على الأمانة في النقل، وأخذ كل واحد من الناس يختار ويصدّق ما يطمئن إليه قلبه.

ولو سألنا عاقلاً أيهما أفضل؟ أن يكتب هؤلاء كل شيء تلَقَّوْه, وينشروا كل ما سمعوه ؟ أم يسجّلوا الأخبار مصنّفةً كما فعلوا ؟

هل ما فعلوه من التصنيف – اطمئناناً – خطأ وخطيئة ؟ أم هو ميزة وحكمة ؟ وهل يلامون أم يُشكرون ويُمدحون ؟

جواب العاقل معروف، والناس تدرك بفطرتها المنكر والمعروف، واللبيب من الإشارة يفهمُ, ومن الأمثلة يدرك ويعلم، وبالأدلّة يحكمُ ويسلّم.

وجاء قوم طبعوا هذه الأقوال كما سمعوها، ونشروا السيرة كما تلقَّوْها، من غير تبديل ولا تحريف, ولا زيادة ولا نقصان, حتى أنهم ذكروا المكذوب على الرجل وبيّنوا أن هذا الخبر مُبالَغ فيه, وذاك مكذوب عليه, ليحذر الناس ولا يفتتنوا, لأن كثرة التداول

للخبر – من غير تثبّت – مثل كرةِ ثلجٍ متدحرجة. وأُسدِل الستار على سيرة الرجل , فلم يستطع أحد بعد هذه التصنيفات وطباعتها إدخال شيء أو إخراج شيء, فصارت حقوق الطبع والنشر محفوظة, وكل من يزيد على ما طُبِع, أو يُنقِص من سيرته وأقواله أو يحذف شيئا – حتى لو كان غير مقتنع به – معرّض للمساءلة القانونية في الدنيا والمحاسبة في الآخرة, فصارت (ماركة مسجّلة)غير مسموح بتقليدها. ورغم ذلك فقد حاول بعضهم التقليد والطباعة والإضافة من غير إذن ذويه, فسارع ذوُوه إلى كشف هذه الأخبار المكذوبة وفضح أصحابها الكذبة.

هذا ما يشبه سيرة حبيبنا محمد ﷺ وما نقله عنه أهل بيته وصحابته, مع فارق التشبيه بالنبوة والوحي, والذي يقتضي الحذر والحيطة أكثر, لأنها تشريع وعبادة.

وهل هناك رجل في الوجود عُرفت سيرته وفصّلت أحداثها تفصيلا , وطبعت وانتشرت اختصاراً وتطويلاً, وسُجّلت كل حركة وسكنة في حياته تسجيلاً, وحُلِّلَت مواقفه تحليلاً, ونُخّلت أقواله تنخيلا, مثل رسول الله ﷺ ؟

والآن إلى موضوعنا حفظ السنة.

ابتداءً أقول: قد يجد القارئ بعض الجمل مكررة، وذلك لتثبيت الفكرة في سياقها.

ديننا نُقل إلينا بالنصوص, مشافهة وكتابة (بالراس والكرّاس) حفظاً, وبالعمل والتطبيق سلوكاً, أمانة في النقل وحُجّة بالعقل, ولا يجتمع النص الشريف والعقل الحصيف إلا في دين الله اللطيف.

تكفّل الله بحفظ هذا الدين بطرق كثيرة منعته من التبديل والتحريف.

وعندما ينحرف الناس عن مسار التوحيد والدين الصحيح يرسل الله من يعدّل المسار ويصحح المفاهيم.

ورُبّ مستعجل يقول: إذا كنت ذكرت النصوص فإن الله تكفل بحفظ القرآن ولم يتكفل بحفظ السنة.

وهذا خطأ شائع يجب تصحيحه، وشبهة خطيرة يجب تفنيدها، ومِن هنا تسلل أعداء الإسلام, فصار عندنا فئة تُدعى (بالقرآنيين) لا يعترفون بالسنة بحجة الموضوع أو المصنوع، ويشككون بالأحاديث بحجة التحريف، ويتركون العمل بالسنة بحجة التصنيف إلى حسن وضعيف.

وسأذكر – إن شاء الله – أدلة تثبت حفظ السنة, بعد هذه المقدمة الآتية:

وصَلَنا القرآن بالتواتر, ووصلتنا السنة مصنّفةً إلى متواتر وصحيح وحسن وضعيف وموضوع, وهذه مسلّماتٌ – أي وصول الحديث بهذا التصنيف– لا يشك بها مسلم, وهناك ثلاثة أسئلة تطرح نفسها,

أما السؤال الأول: هل ما نُقل إلينا من تصنيفات الحديث المذكورة محفوظٌ لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ولا تحريف ؟ أم لم يحفظ ؟

والسؤال الثاني: لماذا هذا التصنيف؟ وكيف تم ؟ وهل هناك تصنيفات أخرى؟

والسؤال الثالث : ما هو موقف المسلم إزاء هذا التصنيف من حيث القبول والرد والعمل به، خاصة وأن العمل بالسنة عبادة ؟ وهو ما يسمى بـ(حجّية السنة) يعني مدى قبول الأدلة من السنة.

الأسئلة الثلاثة تتعلق بتصنيف الأحاديث, وكل واحد منها يحتاج إلى مقالة خاصة, والذي يهمنا هنا هو الأول منهم و الأول فقط، وسنناقشه إن شاء الله. وأُأَكّد على ذلك حتى لا يسأل أحد – أثناء المناقشة – أو يعترض ويقول: إن العمل مرتبط بالتصنيف وثبوت الحديث, أقول نعم والأسئلة الثلاثة مرتبطة ببعضها, ولكن الكلام

الآن على جزئية واحدة فقط, وهي (حفظ ما وصل إلينا) من حيثيّة الحفظ فقط, وبعبارة أخرى هدفنا الآن الإجابة على السؤال الأول، والأول فقط، إلا من إشارات بسيطة ضرورية للثاني والثالث، تخدم المقصود.

ديننا هو قرآن وسنة, والسنة شرح وتفصيل للقرآن, فالسيرة تطبيق كامل لهذا الدين, وإلا كان الدين ناقصاً إن اكتفينا بالقرآن فقط ,

لقد علم الله أن قوماً سينكرون السنّة فأوحى لنبيّه ﷺ الحديث الصحيح: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) وفي رواية أخرى(ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) وليست السنة بمرتبة القرآن، لأن القرآن كلام الله والسنّة كلام رسوله ﷺ مع استحضار الآية (وما ينطق عن الهوى) فالقرآن مُعجِز ومتعبّدٌ بتلاوته وكله قطْعيّ الثبوت, أما السنّة فليست كذلك، ولكنها مثلُه في الوحي – بنص القرآن – كما هو وحي, , وهذا التماثل بين القرآن والسنة، مثل التماثل في أي شيئين تقريبيّين، وكلمة(المثل) في آية سورة الكهف(ولو جئنا بمثله مددا)يعني مثله تماماً.

وكلمة (مثل)التي وردت في الحديث ضرورية في الأخذ بالاعتبار, وإلا لقال (تشبهه), أو(قريبة منه) بل قال ﷺ (مثله) يعني مثله في الوحي (وما ينطق عن الهوى, إن هو إلا وحي يوحى)[1] وكذلك مثله في الأحكام، وفيها أحكام الحلال والحرام كما فيه, وكذلك الفروض والسّنن كما فيه، ويؤكد هذا قوله تعالى:﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[2] وكذلك في الطاعة (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) و(من يطع الرسول فقد أطاع الله)[3] وهذا كثير في القرآن، وكذلك في الحفظ، وسوف نبرهن على ذلك إن شاء الله.

---

[1] سورة النجم
[2] سورة الحشر
[3] الآيتان في سورة النساء

إن الله حفظ القرآن والسنة لأنهما الدين، **كلاهما وحي، ولكن كلٌّ حُفِظ بطريقة**، أما حفظ القرآن فلا يناقش به أحد من المسلمين لأنه صار بدهيّاً من البدهيات .

والكلام على حفظ السنة فقط، لأنها شبهة وقع ضحيتها بعض أبناء الإسلام

إن كان القرآن حفظ بطريقتين عظيمتين, هما الرسم كتابةً, والحفظ تلقيناً,

فإن السنة حفظت بثلاث طرق مدهشة, ربما زادت على طريقة حفظ القرآن عجبا ودهشة, وذلك لشدة الحرص والدقة والتّثبّت في النقل.

لأنها احتاجت لجهود و حيطة وحذر أكثر من القرآن, لأن القرآن قَطَع الطريق من أوله, على الدّسّ والتكذيب فلا يُقبل فيه إلا المتواتر, حتى أن مرتبة الصحيح لا تُقبل, ومثالٌ على ذلك, أنه ورد في الصحيح في كفارة اليمين(صيام ثلاثة أيام متتابعات) فبعض الفقهاء أخذ بالرواية كونها في الصحيح, وآخرون لم يأخذوا بها, كونها من القراءات الشاذة – يعني صحيحة غير متواترة – مع اتّفاقهم وإجماعهم على أن (متتابعات) ليست من القرآن ولا أحد يستطيع إدخالها في القرآن رغم صحتها، لأن القرآن الكريم لا يُقبَل فيه إلا المتواتر(والمتواتر من الحديث بمثابة القرآن المتواتر)[٤] إلا أن القرآن كلام الله والحديث كلام رسول الله ﷺ وسيأتي المقارنة بينهما إن شاء الله في نهاية البحث.

لقد حُفِظَت[٥] السّنّة بثلاث طرق :

(١) بالصِّنف أو (النّوع) (٢) بالتّصنيف (٣) بالمصنّفات

(١) أما الصنف أو النوع (حفظاً)[٦] , فقد حُفظت السنة كصنف متميز ونوع مختلف عن القرآن والشعر وغيره من حكم العرب وأمثالهم[٧]، فغدت (السنة) أو (الحديث)–

[٤] الشيخ : ع . ر

[٥] والحفظ هنا بمعنى المحافظة، يحمل معاني الرعاية والعناية والحراسة والضبط والبقاء والصون، واستحفظه استأمنه، وحافظ عليه من الضياع

مقابل(القرآن)- اسم علَمٍ على أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وصفاته وإقراره وسكوته.. وكل ما يتعلق بسيرته. والمسلمون منذ الصدر الأول إلى اليوم يميزون بين الحديث والقرآن، أوّلها جملة (قال رسول الله ﷺ)وغيرها من العلامات. فعندما يُقال: يحفظ فلان (حديثاً) يفهم منه فوراً المعنى المراد من السنّة [٨]، وليس بمعنى (الحديث ضد القديم) فحدّث ولا حرج عن حفّاظ الحديث والمتون من السلف والخلف, وهذا دليل لا يحتاج إلى مزيد قول, وإلى اليوم تقام الدورات والمسابقات في حفظ السنّة.

(٢) وأما التصنيف فقد حُفظ الحديث بمستويات ورُتَبٍ ودرجات، وسُميت بأسماء تناسب طريقة الوصول والتلقي للحديث والحكم عليه مثل:

(متواتر، مشهور، آحاد، صحيح، صحيح لغيره، صحيح على شرط فلان، حسن، حسن لغيره، ضعيف، شديد الضعف، وأصناف وألفاظ كثيرة مثل المرفوع الموقوف والغريب وغيرها من الألقاب ثم (المختلَق المصنوع أو الموضوع المكذوب) وحريّ بالعاقل أن ينظر إلى هذا التصنيف بعين الإنصاف، نظرة إيجابية، لأنه دليل على الأمانة في النقل، والدقة في التصنيف، والتدقيق في التلقّي، والحذر في القبول. وليس مجرد عاطفة، رغم حبهم للنبي ﷺ.

وما زال طلاب العلم يتناقشون في التصنيفات ودراستها، وخاصة الصحيح والضعيف، وأصبح هذا التصنيف واقعاً يفرض نفسه، ولا يمكن تجاهله بحال. ولا يكاد يخلو بحث شرعي في الحديث والفقه وغيرها من أبحاث العلوم الشرعية إلا وينوّهون إلى تخريج الحديث أو درجته.

---

[٦] والحفظ هنا بمعنى الاستظهار، يعني كما يقولون (حفظ عن الغايب)

[٧] وإلى الآن يستشهدون بأشعار العرب وأمثالهم ويعتبرونها حجة في الاستشهاد في قواعد اللغة والأبحاث ولا أحد يعترض مع إن السنة حظيت بالعناية والدقة في الحفظ والنقل أضعاف أضعاف نصيب الشعر

[٨] السنة بمفهومها العام مقابل القرآن، وإلا فالسنة بمفهومها الخاص الاصطلاحي يختلف عند أهل الاختصاص، فالسنة عند الفقهاء هي مقابل الفرض والواجب، والسنة عند أهل العقيدة مقابل البدعة، والسنة عند المحدثين هو الأثر الوارد في هذا الباب، وعند أهل اللغة هي الطريقة.

أمّا لماذا هذا التصنيف ؟ فهذا يتعلق بالسؤال الثاني, وهذا يحتاج إلى دراسة وتفصيل, ومن رجع إلى كتب الحديث وأهل الاختصاص سيرى عجباً.

والذي يهمنا في هذا الدليل أن أقوال المصطفى ﷺ وأفعاله وصفاته وإقراره .. كل ذلك دُوّن وحفظ وفق هذا التصنيف أوالتقسيم المذكور حتى الموضوع من الأحاديث صار معروفاً كي يحذر الناس منه. ولوشاء الله لحفظ السنة مثلما حفظ القرآن، بطريقتين، ولكن أراد ذلك لحِكَم عديدة منها تمييز كلامه عن كلا م البشر.

يعني هيّأ الله الأسباب لحفظ سنة نبيه ﷺ بهذا الشكل، بغض النظر الآن عن القبول والرد وكيفية العمل بهذا التصنيف، والذي هو جواب للسؤال الثالث، ويحتاج إلى بحث خاص.

(٣) وأما الطريقة الثالثة التي حُفِظت بها السنة فهي التدوين في المصنفات

أما كتابة الحديث فقد بدأت أيام الرسول ﷺ قطعاً وليس بعده، وقد نهاهم رسول الله ﷺ ابتداءً حتى لا يختلط بالقرآن، وهذه حكمة، فلما اطمأنوا للقرآن أذن لهم بكتابة الحديث، أما التدوين المقصود هنا هو جمع الأحاديث وتدوينها في كتب ومجلدات، وقد تم كل هذا في القرون الخيرية الأولى، حيث دونت الأحاديث وبُوّبت في كتب, مثل الجوامع الصحاح والسنن والمستدركات والمسانيد والمسندات والمصنّفات والمستخرجات والمعاجم والمجامع والزوائد, وكلٌ من هذه المسميات لها منهجها في البحث والتحقيق والتأليف، كل ذلك من أجل الحفاظ على السنة,

ولم تبق هذه المصنفات كما كانت مخطوطات سابقة ومطبوعات لاحقة فقط, بل صارت الآن كل مؤلفات الحديث والأبحاث، في عالَم الشبكة العنكبوتية(النّت)أو الذاكرة الرقمية (مخزّنة) وأُغلِق الباب – من زمن بعيد – على ما دُوِّن, ولا ترى إلا

شرحاً أو تحقيقاً, ولا يمكن إضافة أي شيء على الأصل, أوإخراج شيء منه. وإليكم الأدلة على حفظ السنة:

الدليل الأول على حفظ السنة هو السؤال التالي ؟

هل يستطيع أحد أن يضيف حديثاً لصحيح البخاري أو صحيح مسلم أو لغيرهما من كتب الحديث أو ينقص حديثا منهم ؟

ولو استطاعوا – وهم حريصون على تحريف هذا الدين – لفعلوا وما قصّروا.

هل يستطيع أحد أن يضيف كلمة أو ينقص كلمة في حديث واحد ؟

لو قال أحد: قال رسول الله ﷺ (ليست الأعمال بالنيات) لزجره أي واحد من المسلمين قبل أن يكمل.

ولو قال أحد: الحديث (إنما الأعمال بالمظاهر) لنهره أيّ واحد من المسلمين على الفور. حتى لو قال كلمة طيبة (إنما الأعمال بالقرب إلى الله)لاعْترض عليه أيّ واحد من المسلمين أيضاً.

ربّ قائل يقول: هذا حديث مشهور عند العامة, ولكن هناك أحاديث كثيرة لا نعرفها وقد تُحَرّف, نعم، ولكن هناك من يعرفها, وما زالت السنة محفوظة بالسطور والصدور, وأهل الاختصاص يعرفون الدقائق والتفصيلات فلا خوف على السنة، إذا كنت أنت لا تحفظها.

وأذكر الآن – باختصار – قصة ذكرها أحد علماء الحديث، أن أحدهم اعترض على مؤذن, واختلف معه في لفظ (الله أكبر) هل هي بضم الراء أم بفتحها؟ فأخبر المؤذنُ إمام المسجد – وكان الإمام شيخاً عالماً بالحديث فسأل الشيخُ ذلك المعترض ما

دليلك على هذا؟ قال هكذا في صحيح مسلم، قال الشيخ: هل تلقّيْت هذا بالسند عن مشايخك إلى رسول الله ﷺ أم أن الحركة هي خطأ في الطباعة؟ فسكت المعترض.

فإذا وصل التدقيق في الحديث إلى الحركات، فأي شك وأي تحريف يتكلم عنه هؤلاء؟ إنها أسوار حماية لم تكن ولن تكون لأي شريعة غير شريعة الإسلام. ولا تحلم بها أمة من الأمم في حفظ أصول دينها كما حُفِظت أصول أمة الإسلام. والآن بكتابة كلمات من الحديث على (الشبكة العنكبوتية) تعرف نصّ الحديث كاملاً, بل مسجل برواياته وألفاظه المتعددة، ومواطنها في الكتب ودرجة الحديث كذلك, ورواته ومصدره، وماذا قال العلماء عنه. ليس فقط في الكتاب وإنما المطبعة التي طبعته.

ولو نزلنا رتبة:

هل يستطيع أحد أن يُدخِل حديثا جديداً وينسبه إلى الأحاديث الحسنة أو الضعيفة لا يعرفه العلماء ؟

أعود فأذكّر: ليس الآن وقت الكلام عن الأخذ بالحديث الضعيف والعمل به, وإنما الكلام عن حفظ ما نُقل إلينا من الأحاديث بشتى أنواعها.

ولست مبالِغاً بل واثقا – بفضل الله – من كلامي, بأنه لا يستطيع أحد مهما أوتي من عبقرية وذكاء في العصر الحالي أن يدخل (حديثا موضوعاً) جديداً على ما عرف وصُنّف في الموضوعات ؟ سوف يُكشَف أنه موضوع مصنوع مكذوب في العصر الحالي وليس من زمن بعيد. فالضعيف محفوظ على أنه ضعيف, والموضوع محفوظ أنه موضوع, وقد يتسرّع من يقول: لقد كُذب على رسول الله ﷺ فكيف تقول إن السنة حُفظت؟

نعم، وكذلك كذبوا على الله ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾[٩] فحاولوا مرات عديدة، ومنها: أنهم بدلوا كلمة مكان أخرى في القرآن، (أمِنوا) بدلاً من(لعنوا)في سورة المائدة، فطبعوه طبعة مذهّبة، وكشف التحريف وأحرقت المصاحف المحرّفة، وفشلوا, كما ألّفوا ما سمّوه (الفرقان) جمعوا فيه من نصوص القرآن والتوراة والإنجيل, وقد رأيت منه صورة، ولكنه لم ير النور وإنما أكلته النار.

محاولات الأعداء لاتقف وكيدهم لا يهدأ, ولكن الله يعصم كتابه وسنة نبيه ﷺ من التحريف والتبديل, فيسَخّر من يكشف الغريب والدخيل.

فليس المهم الكذب والوضع ولكن المهم هو كشفه، وهذا ما تم بفضل الله.

وسوف يرى القارئ في الدليل السادس, متى يقال أو يصحّ القول: إن هناك شكّاً أو تحريفاً ؟

ورُوي أن أحد الولاة أمسك بأحد الوضّاعين للحديث, فلما همّ أن يقتله قال له كيف تقتلني ولم تسألني عما وضعت؟ قال هناك من يكشفها ويخْرِجُها.

والخلاصة أن السنّة التي نُقلت الينا بأحاديثها المبوبة المصنفة بدرجاتها حتى الموضوع منها, حفظ وأغلق عليه الباب, وأسدل عليه الستار, ولا يمكن إدخال أي حديث على ما حفظ، أو إخراج أي حديث مما حفظ، بل يصعب إدخال أي كلمة أو إخراجها منه. وعلم مصطلح الحديث توفيق من الله لمنع إدخال ما ليس من الحديث ولمنع إخراج ما هو حديث، وأكبر دليل مشاهد محسوس هو أن الله هيأ حرّاساً للسنة كشفوا الموضوع، وصنفوا الباقي.

ولا يظن أحد أني أدافع عن موضوع– معاذ الله – إنما أدافع عن حفظ ما نُقل إلينا كاملاً.

[٩] سورة يونس

فالقرآن كلام الله حُفِظ بطريقتي الرسم (نسخاً وطباعةً) والتلقين (ترتيلاً وحفظاً) وكذلك السنة (المصنّفة) مكتوبة مطبوعة محفوظة بالسطور والصدور، وما أكثر الحافظين للمتون, والآن يوجد من يحفظ الكتب الستة والعشرة وغيرها، ومازالت الدورات والمسابقات تقام من أجل ذلك. والسّنّة زادت على القرآن بطريقة التصنيفات والدرجات و الرتب التي لا يحتاج إليها القرآن لأن مرتبته التواتر والتواتر فقط .

فهذا الإنجاز الكبير في التعامل مع السنة, لم يكن كذلك مع القرآن, لأن الله تكفل بحفظه بطريقة الحفظ والرسم, وحَفِظ الله السنة بأن هيأ قوماً بل أجيالا وعباقرة وضعوا قواعد علم الجرح والتعديل، وعلوم الدراية والرواية حمايةً للسنة وتحصيناً لها من كل دخيل وغريب, وتمييزاً لمراتب الحديث المنقول، مثل اعتبار الكثرة والقلة, وحالة الراوي وكبره وصغره وقوله وعمله وسيرته, وأمور أخرى يعرفها أهل الحديث, تدل على الحرص، وتبعث الطمأنينة على أن هذه السنة محفوظة, بل يزداد المرء اطمئنانا عندما يقرأ سيرة قوم كانوا قمة في الصلاح والتقوى والورع, حتى أن بعضهم كان يرفض أخذ الحديث ممن كذب على دابّته, وبعضهم لا يكتب الحديث أو يلقيه إلا متوضئاً.

أعود فأقول وأكرر: إن العمل بالحديث شيء، والتصنيف – بسبب اختلاف وصول الحديث – شيء آخر, وهناك من يربط بين العمل والتصنيف, فلا يعمل إلا بالصحيح الثابت, وهناك من يعمل بالحسن, وهناك من يعمل بالضعيف بشروط, وهذه اجتهادات ليس محل نقاشها الآن كما أسلفت, وإنما القصد إثبات أن السنّة حُفِظت كما وصلت إلينا بتصنيفاتها.

ولا بد من الإشارة إلى أمر يتعلق بالإمام البخاري رحمه الله:

أسأل أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالقرآن ويشككون بالسنة:

هل تشكون بأصل السنة كلها ؟ أم بشخص البخاري ومسلم ؟ أم ببعض أحاديثهم ؟ وأفترض أن الجواب هو الشك ببعض أحاديث البخاري, الذي هو حديث الساعة. لأن ما سبقه من الشك خطير, ومزلق كبير, وشِبَاكٌ شيطانية, قد تؤدي في النهاية إلى ترك العبادات, حتى قال بعضهم: إن الإيمان في القلب وفي القلب فقط. ونسوا أن الله يقول: (آمنوا وعملوا الصالحات) وفي الحديث (الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل) نسأل الله الثبات.

نعود إلى الشك الأقل خطورة, وهو تضعيف بعض أحاديث البخاري,

وقبل ذِكْر أقوال أهل العلم في صحيح البخاري، يجب أن يُعلم أن التدوين الذي نتكلم عن حفظه، تمّ قبل البخاري، وأن البخاري جمع ما دَوّنه العلماء قبله، ووضع شروطاً للاختيار، وشدّد أكثر من غيره في هذه الشروط، وانتخب منها ما اعتقد أنه صحيح وفق شروطه القوية. حتى أن من جاء بعده يقول: (صحيح على شرط البخاري) كل ذلك من باب الحرص والحذر حتى لا ينقلوا خبراً مكذوباً عن رسول الله ﷺ . ومن عجائب قول المشككين: البخاري كذب على الرسول ﷺ فهو في النار. كيف عرفت ؟ قال من الحديث(من كذب علي متعمداً فلْيتبوّء مقعده من النار) قالوا: هذا الحديث رواه البخاري. كيف تستشهد بقول من تعتقد أنه كاذب؟

إنهم طلاب دنيا بنفوس مريضة، وليسوا طلابَ حق.

نعم هناك من ضعّف بعض الأحاديث في البخاري, وموقف العلماء من صحيح البخاري – حسب علمي – متدرّجاً كالتالي :

– الصحيح أن كل ما في البخاري صحيح. وهو أعلاها حكماً.

– صحيح أن هناك أحاديث تكلموا بها، ولكن السابقين وجدوا لها تخريجات في المعاني والتأويل، ربما غابت عن الآخرين.

– نعم هناك أحاديث ضعيفة – والحق يقال – ولا يقدح ذلك بالبخاري. فهي في اجتهاده صحيحة وإلا ما كان اختارها. وهذا أوسطها حكماً

– البخاري مثل غيره من البشر يخطئ ويصيب وليس معصوماً، ويجب تنبيه الناس إليها.

– هناك أحاديث ضعيفة يجب أن ترفع من صحيحه, ولعل هذا أشدها حكماً

وقد أعاد بعضهم طباعة كتاب مشهور بعد أن رفع الأحاديث الضعيفة – بنظره – وحذفها , فردّ عليه بعض الفضلاء من أهل العلم: (لا يجوز – من باب الأمانة العلمية – أن تحذف شيئاً من كتاب المؤلف إلا بإذنه, وإذا كان المؤلف قد تُوفّي، فقم بالتحقيق، واذكر سبب ضعفها، كما هو معروف اليوم في تحقيق الكتب والرسائل العلمية، الماجستير والدكتوراه, واكتب رأيك وعقّب على المؤلف, وما تراه ضعيفا قد يراه غيرك صحيحاً, أما الحذف فهو خيانة علمية)[١٠] ولم أسمع بعالم منصفٍ صادقٍ شكّك بالبخاري كله, بل على العكس من ذلك، فقد صحّحوا كثيراً مما ليس في البخاري ومسلم..

لا يعنينا هنا كلمة صحيح أو ضعيف, فليس المقام مقام حكم على الأحاديث, فلِلْحكم على الحديث رجال مختصون, هم فرسان ذلك الميدان, وليس كل عالم أهلاً لخوض هذا المضمار, فما بالك بالعامة. والمراد من المقالة التأكيد على حفظ السنّة, حتى الضعيف منها محفوظ في الكتب, وعليه أقول:

– الشك والكلام لم يطرأ على أصل الحديث, ولم يضف البخاري، حديثا من عنده، أو حرّف السنة وغيّر وبدّل, بل الكلام والشك طرأ على تصنيف الحديث, والعلماء يختلفون أحياناً على درجة صحة الحديث أو ضعفه, كلٌّ حسب علمه واطلاعه

[١٠] عن الشيخ: ر. ح بتصرف

ومتابعته للحديث وطرقه وسنده ومتنه, وكذلك يختلفون في الفهم والقناعة والشِّدة والتساهل في الجرح والتعديل, كل ما في الأمر, أنهم اختلفوا على صحته وضعفه, هذا صنّفه في الصحاح وذاك صنّفه في الضعاف, وآخر صنفه في الحسن. وعلى كل الأحوال بقي داخل إطار التصنيف ضمن السنة محفوظاً .

الخلاف إذاً على تصنيف الحديث, وهل يوضع في هذا الكتاب أم ذاك.

وأعود للسؤال هل يستطيع أحد أن يأتي بحديث يدسّه في صحيح البخاري أو مسلم ؟ لا وألْف لا.

وإذا كان القوم يشكّكون بصحيح البخاري ومسلم فمن باب أولى أن يرفضوا أي حديث جديد في هذه الكتب, وكل مسلم يرفض إخراج أي حديث(مثبت) أو إدخال أي حديث (محْدَث) هو من حرّاس السنّة, شعر بذلك أم لم يشعر, ولكن الذين يشككون بالسنة – إما جاهلون غارقون في الجهل، أو مغفّلون مسيَّرون (من حيث يدرون أولا يدرون) بل يقفون في خندق واحد مع أعداء الإسلام, أو أنهم منافقون مندسون.

نحن مع حرية الرأي والفكر والتفكير بعيداً عن سلطة الهوى وإغراء أصحاب النّفوذ وأعداء الدين، بالترغيب أو الترهيب.

ونحن مع النقد البنّاء والمناقشات العلمية البعيدة عن التعصب. وفي الوقت نفسه ضد المتطاولين على اختصاص غير اختصاصهم. وهم أنفسهم لا يقبلون أن يتدخل غير مختص في اختصاصهم، إلا من استفهام واستفسار، أمّا أنْ يرفض أو يردّ ويشكك في علم لم يدرسه أصلاً، أو درسه ولم يتعمق به، فهذا لا يقبله عاقل.

أما إذا شك أو شكك أحد بشخص البخاري نفسه وغيره من أئمة الحديث مع كمال قناعتنا أنهم غير معصومين, ومع احترام الأئمة دون تقديس ولا تبخيس((وكل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر)) عليه الصلاة والسلام , فالشك بالأئمة مشكلة

أخرى, بل أخطر من الأولى, لأن الطعن في الناقل طعن في المنقول. والسؤال هنا هل اطّلع هؤلاء على سيرة أولئك الأعلام من المحدثين ؟

ولو فرضنا جدلاً أن البخاري أخطأ، فهل أخطأ في كل الأحاديث في كتابه؟ وهل هذا الخطأ خطيئة متعَمَّدة محرّفة أو مكذوبة على السنة ؟ أم اجتهاد وقناعة في الحكم على الحديث، ثم تصنيفه بناء على ما وصله من معلومات تتعلق بالحديث؟ وهذه الأحاديث المختلف عليها بصحيح البخاري ألم تبق في إطار السنة وسياج الملة وسور الدين رغم الخلاف عليها ؟

وللأسف فقد وصل الأمر إلى التشكيك ببعض الرواة من الصحابة,

فلماذا يقيمون الدنيا ولا يقعدونها على من نقل حديثاً اجتهد في نقله كما سمعه تماماً, خاصة من عُرفت سيرتهم, وأفنوا حياتهم في خدمة هذا الدين، وهم أحرص منا على حفظ السنة, لماذا كل هذه الحملة، والمرويات مصنفة وفق معايير وموازين دقيقة فاقت موازين الذهب ؟

لقد هيأ الله قوماً(ينظرون إلى من قال وإلى ما قال)يدرسون سيرة المحدث كاملة، وأخلاقه وصفاته، ويسألون ممن سمعت الحديث؟ وكيف؟ ومتى؟ يدرسون الحديث ويحلّلونه في مختبر الدراية والرواية , ثم يوافونك بنتيجة التحليل ثم يصنفون الحديث, ومن أراد التفصيل فليرجع إلى علم الجرح والتعديل. جزاهم الله خيراً أراحونا من عناء البحث.

وهل هذا التصنيف الأمين – كما مرّ بنا آنفاً في المثال أوّل المقالة – نقْصٌ يلامون عليه ؟ أم مِيزة يُشكَرون عليها ؟

ولو أن كل ما سُمِع نُقِل من غير تحقيق, وكل شيء كُتِب مِن غير تدقيق, لكان مع الشّاكّين شيء من الحق.

أما وإن الأحاديث والأخبار دخلت مختبر الجرح والتّعديل, وخضعت لشروط القبول والتسجيل, ومرت على ميزان التحقيق والتّدقيق, وصُنّفت وفق معايير الضبط والأمانة, ومُحّصت بعلم الدراية والرواية, وإن نفذ حديث من المراقبين – المتساهلين بالشروط – ونجا, فإنه يقف عند المراقبين المشدّدين بالشروط, يفتّشونه حرفاً حرفاً، بل ويدققون علي ضبط الحركات – كما مر – عند الحاجة.

لقد مُيّز الغثّ من السمين, فليس لأحد بعد ذلك حُجّة, ولا يحق لأحد أن ينبس ببنت شفة. ومن أراد المزيد فليرجع إلى ذلك في مظانّه , وخاصة كتب الجرح والتعديل, وكيفيّة تلقي الحديث, وأخبار المحدثين المنقطعة النظير.

لم يقبل هؤلاء الرجال – رغم حبّهم لرسول الله ﷺ – كل شيء نقل عنه, حتى الذي قبلوه لم يرضوا أن يجعلوه في مرتبة واحدة – مع يقينهم أنه (لا ينطق عن الهوى) – حتى يوثّقوا المنقول بمعايير الأمانة والاطمئنان, فكان[11] التصنيف المعروف, وذاك دفاعاً عن نبيّهم حتى لا يُنسب إليه نقص ثم يأتي مَن في قلبه مرض وفي عقله لوثة من(مسّ)المغرضين المتربصين يتطاول على الأئمة والمحدثين, ويطعن في رواياتهم, وهو ليس من أهل الاختصاص, وأقل وصف له أنه تدخل فيما لا يعنيه(ومن تدخل فيما لا يعنيه وجد ما لا يرضيه) وأخشى أن أذكّره بالحديث (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فيرفض النصيحة لأنه غير مقتنع بالحديث ويشك بثبوت الحديث.

والمشكلة عند بعضهم أن الشك بالحديث صار عندهم أصلاً, فيترك كثيراً من العبادات الصحيحة حتى تظهر له صحة الحديث, وهيهات أن يجد وقتا أو أحداً يسأله إذا لم يكن مهتماً بذلك أصلا, وإن كان في الحذر شيء من الإيجابية, ولكن

[11] فعل ماض كامل

المصيبة في سلبيتها, فيراها فرصة لترك العمل والتهرب من الواجبات, بحجة الشك بالأحاديث, وقلبه يعلم أن هناك علماء صالحين يقومون بهذه الأعمال.

ألا إنه اختبار صعب للنفوس, أيتبع العلماء الصالحين, أم المتعالمين المشككين ؟ (إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم)

نعم إنها إرادة الله أن يحفظ كلامه بطريقة التواتر فقط لأنه كلامه عزّوجل, وإرادة الله أن يحفظ سنة نبيه ﷺ بهذه التصنيفات لحِكَم , ولعلّ منها : أن يختبر الناس بدرجات الاطّلاع والبحث, والمطّلع حجة على من لم يطّلع, ويمتحنهم بالحلم والتّحلّم على المخالفين, والفهم والتّفهّم لوجهة نظر الآخرين, وأن يختبر همّتهم للعمل, فهذا يترك سنّة لأنها سنّة – يعني بنظره غير مهمة – وليست فرضاً, وهذا يعملها لأنها سنّة حبّاً بالحبيب واتباعاً له. وذاك يعمل سنّة وإن جرى فيها خلاف وضعف, والآخر يتركها لأن فيها خلافاً وضعفاً, هذا يفعل منكراً لأنه – في اجتهاده – ليس منكراً و لم يرد فيه نهي صريح, وهذا يتركه احتياطا لأنه ورد فيه نهي ضعيف, فهذا شأن العاملين – بالرخص والعزائم – بالنسبة للصحة والضعف (قل كل يعمل على شاكلته)واجتهاده,

أما الحفظ, فكل السنّة محفوظة حفظاً انفردت به الأمة الإسلامية عن الأمم كلها.

وخلاصة الدليل الأول هل سمعتم يوماً أن أحد كتب الحديث المشهورة طُبع في هذا العصر وحَذف منه المغرضون أحاديثاً أو أضافوا إليه أحاديثاً ولم تُكشف؟

فالتصنيف اجتهاديّ، والعمل به اجتهاديّ، أما الحفظ فهو رباني .

أما الدليل الثاني لحفظ السنة:

أليس هناك طائفة ظاهرة على الحق ؟ أليس هناك قوم ملتزمون بالعبادات وفق السنة ؟

ألست أيها المناقش مسلماً تصلي وتصوم وتعتقد أنك على حق ؟

هل أخذت أحكام الصلاة والصيام وغيرها من القرآن أم من السنة ؟

غريب أمرك, تشك بالسنّة وتعمل بها, أنت أنت من تحفظ السنة بعملك.

نعم ملايين يحفظون السنة – عملياً – من علماء ودعاة, ورجال ونساء, وكبار وصغار. قل لمن يشك بالسنة أصلاً كيف يصلي ولم يأت تفصيل الصلاة بالقرآن؟ وكذا سائر العبادات.

فلا تخشوا على تحريف السنة من فئة جاهلة بالدين, أو مغرضة خبيثة من خارج الدين (فالبحر لا تكدره الدلاء)

ونغض الطرف الآن عن الخلافات الفقهية التي يعتبرها بعض أهل العلم مرونة في الدين وسعة للناس في حياتهم. المهم أن السنة محفوظة بالعمل وخاصة عند من يهتمون بالسنة والاتباع الصحيح, وحريصون على تنقيح السنة من البدع .

أما الدليل الثالث : لو أن أمة الإسلام بعمومها انحرفت عن الحق, وعن التوحيد, وعن السنة, وعن الدين الصحيح, وضلت كما ضل اليهود والنصارى, لهيأ الله من يجدّد لها دينها ويعيدها إلى جادة الصواب.

أما وإن رسولنا محمداً ﷺ خاتم الرسل والأنبياء, فيلزم من ذلك أن الشريعة كاملة غير ناقصة, ومحفوظة من التحريف والتبديل, وشريعتنا هي قرآن وسنة.

الدليل الرابع : اختلاق الأحاديث ودس المكذوب كان في بداية التدوين, فقد كانوا يكتبون الكتب بأيديهم، ولم تكن يومها حقوق محفوظة ولا رقابة ولا يحتاج النشر لإذن ، فإمكانية الدسّ واردة، ورغم ذلك كشف المكذوب.

سواء أكان بالكذب على رسول الله ﷺ أم بالكذب له, لأن بعض الوضّاعين قال: أنا لا أكذب عليه وإنما أكذب له, لتشجيع الناس على الفضائل وعمل الخير.

لقد أُغلق الباب بعد انتهاء التصنيف والتبويب, وكَشْف المكذوب، ومن ذلك الزمن، والتزوير يزداد صعوبةً, والآن يستحيل إدخال حديث جديد حتى لوكان موضوعاً لم يعرفه أهل الحديث. وإن تمّ شيء من هذا – بتعاون أهل الباطل – سرعان ما ينكشف. ولم نسمع عن حديث وُضع جديداً. ومازالت الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه)مستمرة في دراسة الحديث متناً وسنداً وتحقيقاً وتعليقاً وتحليلاً وترجيحاً, ثم يأتي بعد هذا من يقول إن السنة مشكوك فيها !!

(قد تُنكِر العين ضوء الشمس من رمد ..وينكر الفم طعم الماء من سقم) .

وعلم (مصطلح الحديث) أو(أصول الحديث) من العلوم التي ميّزت أمة الإسلام عن غيرها من الأمم وانفردت به, وصار لهذا العلم أهله وكتبه وأبحاثه وحرّاسه,

الدليل الخامس: أكثر الأحاديث الموضوعة كانت في الفروع ولم تكن في الأصول إلا من الطوائف الباطنية والفرق المنحرفة, وغالباً ما يكون الوضع في الفضائل, لأن الكذب بالأصول مكشوف لأبسط الناس, فهناك من الوضّاعين من تسلّل من باب الترغيب في الفضائل، فشُغِل بعض الناس بها عن الأهم منها, ولكن هذه الأكاذيب – بفضل الله – كُشِفت وعرفت وصُنّفت فيما عرف بالأحاديث الموضوعة.

الدليل السادس : متى نقول عن دين إنه محرّف ؟ ومتى نقول عن نصوص إنها تبدلت وتغيرت ؟ أو إنه مشكوك فيها ؟

يتمّ التحريف بتغيير النصوص إضافةً وحذفاً, ثم ينبني على ذلك عمل جديد, ثم يألف الناس هذا التغيير الجديد, وتستمر الأمة بالأخذ بالجديد ثم الأجدّ, وهكذا, بعد أن ينسوا القديم, كما حدث للكتب السماوية السابقة, وتنشأ عليه الأجيال ولا يأتي من ينبههم, وبالتالي يضل القوم الغافلون, كما حدث لغير المسلمين. وهذا ما لم يحدث ولن يحدث لأمة الإسلام, والسنة كما القرآن محفوظة أبيّة على التّحريف, وما عِلْمُ (مصطلح الحديث) إلا لحفظ السنّة من إخراج شيء منها, أوإدخال شيء ليس منها .

إذاً يكون الشكّ, حال التحريف المستمر , فلا شكَّ ولا تحريفَ ما دامت التنقية مستمرّة والتنقيح دائم. نعم مازال هناك أناس ساهرون – والحمد لله – ينقّحون السنة من الدسائس والخرافات والبدع ,

كما أن الاتّهام لا يُثبت صفة للمتَّهَم, فقد اتهموا أفضل الخلق وأكرمهم ﷺ بالكذب والسحر والكهانة والجنون , ولكن هيهات هيهات .

فإن محاولة التزوير بحدّ ذاتها لا تُثْبِت تحريفاً، ومحاولة الدسّ لا تغيّر تصنيفاً,

والقرآن نفسه لم ينجُ من المحاولة, كما أسلفت، وفشلوا، ودليل الفشل واضح، لأن كل شيء صار مكشوفاً.

والسنة، والقرآن، في كشف محاولات الوضع والتحريف سواء. أي أن القرآن والسنة مشتركان في محاولة الأعداء، والحفظ من رب السماء.

ربما شُوّهت شخصياتٌ, ودُسّ في كتب التزكية خرافاتٌ, وزُوِّر التاريخ, لأن التاريخ غالباً ما يكتب برعاية الأقوياء، فيُمْلُون على الناس ما يريدون, نعم تمّ ذلك لأن بعض الحقائق طُمِسَت قروناً, فضَلّ مَن ضلّ في الأرض, أما قرآن ربنا وسنّة نبينا ﷺ محفوظة بحفظ الله جلّ وعلا .

فإذا كانت المحاولات فشلت, وعُرِف السليم من السقيم, والصحيح من الضعيف, وأُبعِد الحديث الموضوع فلماذا الشك ؟

وأذكر هنا قصة تدل على معنى التحريف:

شاب مسلم انحرف في كبره, وكان قد حفظ بعض قصار السور في صغره , صحب شاباً نصرانياً. وبينما كانا جالسين مرة، همّ النصرانيّ بالقيام ليسلّم على قسّيس مرّ من أمامه, فأجلسه الشاب قائلاً: دعك من رجال الدّين الذين .. فقاطعه النصراني وقال متحمّساً: هذا القسّيس وصل إلى درجةٍ أضاف للإنجيل آيات, فدُهش الشاب المسلم وذُهل, فكانت هذه الكلمات تنبيهاً له من غفلة, وصحوة له من سكرة, وتحيّن النصراني ذهول الشاب وذهب وسلّم على القسيس وعاد, والشاب المسلم يردّد مستغرباً وبصوت مسموع : أضاف للإنجيل آيات ..هَهْهَهْ ..يضيف للإنجيل آيات .. هَهْهه .. أيّ قدسية هذه ؟!!! وهو يستعيد ذاكرته بسوَر قرآنية محفوظة , ونور الإيمان لم ينطفئ في قلبه, مُوقنا أن القرآن محفوظ من التبديل والتحريف, قال النصراني: وما الغرابة في الأمر؟ قال: هل هناك فرق بين الحطب والخشب ؟ قال لا فرق, فالحطب خشب والخشب حطب, قال له: تعال لأريك شيئاً, فأخذ ورقة كتب فيها سورة المسد, بعد أن كتب كلمة (الخشب) محل كلمة (الحطب), ثم علّق الورقة على باب المسجد, وجلسا بعيدين يراقبان ردّة فعل الناس القادمين للصلاة, وكانت المفاجأة بعد قراءة الناس للسورة, أن مزّقوا الورقة قائلين من هذا الجاهل الذي بدّل وغيّر في الآية ؟ ويضحكون على من وضع الخشب محل الحطب, قال الشاب المسلم : هؤلاء عوام المسلمين كشفوا الخطأ البسيط ولم يرضوا به, فكيف بعلمائهم ؟ وأنت تقول أضاف القسّيس آيات ؟؟؟

هذه القصة وإن كانت تتعلق بالقرآن, فإنها تدل على أن التغيير

– إضافةً وحذفاً – إذا استمر ولم يأت من يصححه صار تحريفاً, وهكذا حُرّف الإنجيل والتوراة, وإذا كشف التزوير وبقيت الأصول على ما هي عليه كما القرآن والسنة (المصنّفة) بقيا محفوظين خاليين من أي زيادة أو نقص عن المنقول – مع اختلاف طريقة الحفظ – فكل محاولات التغيير كشفت, وكل محاولات التحريف فشلت .

الدليل السابع : لم تكن الكتب موجودة أو متوافرة كما هو اليوم, وربما لا يوجد غير نسخة واحدة من صحيح البخاري عند شيخ البلد, حيث كانوا– فيما مضى – يكتبون باليد نُسَخاً معدودة, والتلاميذ يكتبون ما يُملى عليهم من مشايخهم, فتختلف النسخ أحيانا عن بعضها لأسباب كثيرة, أما اليوم فنحن في عصر صار الدّسّ والتحريف أصعب من أي وقت مضى, وبلغ التوثيق للمعلومات مبلغاً عظيما خاصة بعد (ثورة التخزين الرقمية) ليس على مستوى الأفراد والمؤسسات فحسب, بل على المستوى الدولي, الذي صار العالم فيه قرية صغيرة بين يديك, من حيث الاتصال والثقافة والمعلومات المتاحة, ولو حدث تزوير في أي كتاب من أصول الدين, لوصلت إليك المعلومة فوراً أينما كنت في العالم, فضلاً عن المساءلة القانونية حال التحريف والتبديل أو سرقة المعلومة, ولو تساءلنا – مثلاً – كم يوجد نسخة من صحيح البخاري في العالم ؟ كم طبعةٌ أصدرت ؟

هل هناك مسلم أو طالب علم ليس عنده هذا الكتاب المبارك ؟ كم قرص (سي , دي) ؟ كم ذاكرة(فلاش ميموري)أو (يو.اس. بي) حوت هذا الكتاب وغيره ؟ أليس مستحيلا أن يُدَسَ حديث أو يُحذف منه بعد هذا الانتشار الواسع ؟ إذاً يمكن أن نضيف إلى وسائل الحفظ وسائل أخرى لم تكن معروفة من قبل, ممّا يزيد الثقة والطمأنينة أنّ هذه السنّة كانت محفوظة ومازالت, بل أشدّ حفظاً في عصر التقنية.

وفي عصر التقنية صَعُبَ إدخال بيت من الشعر أو نسبته لغير قائله وإليكم هذه القصة اللطيفة :

حدثنا أحد الأخوة أنه ألّف بيتاً من الشِّعر, موزوناً على أحد بحور الشعر الخليلية, وأرسله إلى إذاعة مشهورة معروفة ليختبرهم, طالباً منهم معرفة اسم الشاعر, وكانوا يذيعون برنامجاً جميلاً يتعلق بالشعر العربي, ولأن الإذاعة ذات مصداقية وتحترم نفسها, كان جواب المقدِم بكل بساطة وجرأة : آسفين، لم نعثر على اسم الشاعر, وكان بإمكانهم أن ينسبوه إلى أي شاعر قديم, أو إلى معلّقة من المعلقات. ومن يقرأ المعلقات اليوم ؟ وأين مَن يحاسبهم من أحفاد شعراء العصور السابقة لو ادّعوا أن بيت الشعر له؟ ولكنها الأمانة, بل لم يجرؤوا على ذلك, خاصة وأن كل شيء غدا مكتوباً محفوظاً, وكل مكتبات العالم العربية والغربية مخزّنة بطرق كثيرة, عصيّة على التحريف, وليس القرآن والسنة فقط, ولكنّ القرآن والسنة زادا عليهما أن الله حفظهما قبل حفظ البشر لهما.

والدليل الأخير :

(أليس الذين نقلوا القرآن هم الذين نقلوا السنة؟)[١٢]

أتشكون بالناقل أم بالمنقول؟

فإن كان بالمنقول قرآناً وسنّة فتلك طامّة، وإن كان بالناقلين فإن هذا يؤدي للشك بالمنقول. فعجيب والله أمر من يثق بالقرآن ولا يثق بالسنة،

وأختم بلطيفة تتعلّق بتدبّر كلام الله وفهم بعض آياته, والتدبّر مطلوب وباب التّفهم مفتوح, والفهم عطاء من الله .

[١٢] ش : ع . ر

قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[١٣] وفي سورة النحل (وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون) تعالوا لنتفكر: صيغة الفعل الثاني(نُزِّل) ماضٍ مجهول، أي الذي نُزّل من قبل، تفيد بأن المُنزَل أسبق بالنزول من الصيغة الأولى الماضي المعلوم (أنزلنا)شيئاً ليبيّن ما نُزِل من قبل.

(ما نُزّل)(أي الذي نُزّل)قطعاً هو القرآن، والمقصود بكاف الخطاب هو رسول الله ﷺ, قطعاً لأنه هو الذي نزل عليه القرآن, وهو الذي يبيّن للناس بسنّته ما نُزّل في القرآن, قال بعض المفسرين (الذكر) في سورة النحل: هو القرآن وقال البغوي: إن (الذكر)هو الوحي, وبعضهم قال هو العلم, والعلم وحي من الله (وعلّمك مالم تكن تعلم)[١٤] فكل ما نُقل عنه ﷺ هو علم , وكل ما نطق به ﷺ وحي, (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)فإذا كان (الذكر)– حسب هذا التفسير– وحي وعلم , والعلم والوحي هما السنّة(يعني أن الذكر هو السنّة)وأن (ما نُزّل) هو القرآن.

وإذا كان (الذكر)– حسب التفاسير الأخرى – هو القرآن, فإن(ما نُزّل)هو السنّة. ومهما يكن من خلاف المفسرين, فإن كلا الكلمتين(القرآن والسنة) مشتركتان بـ (التّنزيل) و(الوحي) و(الذكر), وبالتالي, فالسنّة وحي, والوحي (الذكر) في سورة النحل، و(الذكر) – كما في سورة الحجر– محفوظ , فدخلت السنة في الحفظ , ولو قال الله: إنا نحن نزلنا (القرآن) أو(الكتاب) لكان الحفظ محصوراً على القرآن فقط, أما وإن الله جلّ في علاه قال:(إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون) وله حكمة في كلمة (الذكر)فقد دخلت السنّة في عموم اللفظ , خاصة وأنها هي الذكر والوحي في سورة النحل.

وخلاصة اللطيفة هي أن السنّة وحي منزّل وذكر محفوظ. والله أعلم.

---

[١٣] سورة الحجر
[١٤] سورة النساء

وإليكم خلاصة ومقارنة بين القرآن والسنة :

القرآن	السنّة
كلام الله (عز وجل) المعجز المتعبد بتلاوته	كلام رسول الله ﷺ ليس كذلك
وحي من الله	وحي من الله
فيه أحكام الحلال والحرام	فيها أحكام الحلال والحرام
بقي محفوظاً	بقيت محفوظة
نُقِل محفوظا مكتوبا بالتواتر	نُقلت محفوظة مكتوبة بالتصنيفات المعروفة
أُغلق الباب على المنقول المتواتر وما زال	أُغلق الباب على ما دُوِّن وصُنّف وما زال
الخلاف في التفسير والقراءا ت وليس على التحريف	الخلاف على التصنيفات وليس على التحريف (لأن التصنيف اجتهادي والحفظ رباني)
لا تقبل القراءات الشاذّة	لا تقبل الأحاديث الشاذّة المنكرة الموضوعة
محاولات الدّس فشلت وانكشفت	محاولات الدّس فشلت وانكشفت

وأختم بجواب على سؤال طرحته على الشيخ د . (م س ح) أحد المتخصّصين بعلم الحديث بعد اطلاعه وتعليقاته على المقال , هل يمكن دسّ حديث في أحد كتب الحديث ولا يكشفه الحفّاظ وأهل الاختصاص ؟ فأجاب – حفظه الله – من المستحيل دسّ حديث ولا يُكشَف .

وأخيراً: الإسلام يريد عقلاً يبحث عن الحق والحقيقة لاعن المكانة والوظيفة, يريد طالب علم يستفيد من تجارب العلماء الصالحين المدققين , ولا يقلد المغرضين المشككين.

اللهم اجعلها حسنة في صحيفتي دفاعاً عن سنة نبيك سيدنا محمد ﷺ والحمد لله رب العالمين .

إضافة: (لو علم منكروا السنة أن علياً المدينيَّ ضعف أباه، وأبا داوود ضعف ابنه ، وزيدَ بْنَ أبي أنيسة ضعف أخاه لأدركوا أن السنة محمية بحماية الله تعالى،ومحفوظة بحفظه ، وأنها جاءت بطريقة سليمة بعيدة عن الهوى ومرادات النفس، وهناك مئات الأدلة على سلامة نقل السنة)

.....ملحق.....

الشكل(١) الآتي مخطط بياني يوضح التصنيف الأصولي للحديث حسب درجة قوته باصطلاحات السلف.

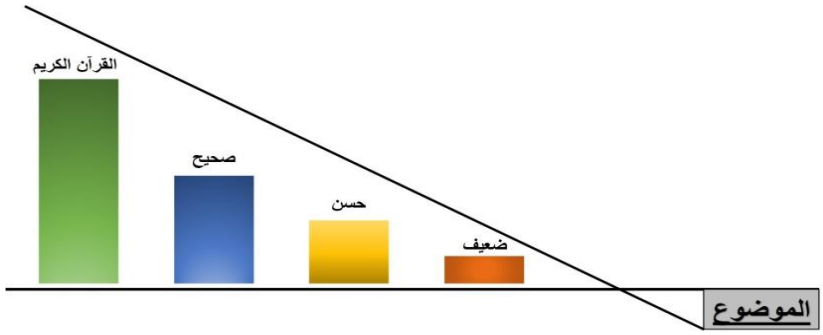

شكل (١) **التصنيف الاصولي للحديث**

وهناك اقتراح لتصنيف الحديث تصنيفاً رقمياً شكل (٢) يجمع بين تصنيف السلف وتقنية الخلف، وجاء هذا الاقتراح لأسباب منها :

إن الأرقام هي لغة العصر.

إن لغة الأرقام يفهمها جميع الناس على

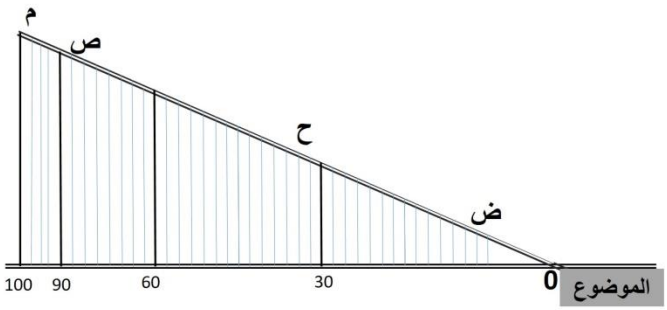

شكل (٢) **التصنيف الرقمي للحديث**

اختلاف لغاتهم، بخلاف الكلمات التي تحتاج إلى ترجمة، وإشكالية الترجمة حرفية أم بالمعنى أم بالاصطلاح الذي وضع لأجله.

وأن لغة الأرقام أدق من الكلمات، وقد حاول السابقون جاهدين لإيجاد تقسيمات فرعية أخرى مثل:(أصح الصحيح) و(صحيح لغيره) و(حسن لغيره) و(يتقوّى بطرقه) و(شديد الضعف) ...الخ ، وما وضعوها إلا سعياً واجتهاداً في التفصيلات. وهذا التدرّج في التصنيف دليل على الوعي والحذر، والدقة في التلقي، نتج عنه تصنيفاً حسب القوة، كما يقول ابن الصلاح:(درجات الصحيح تتفاوت في القوة حسب تمكن الحديث من الصفات المذكورة التي تنبني الصحة عليها)[١٥]

فالمسألة مسألة قوة وضعف، وليس عبارة مقصودها (صح وخطأ) أو صدق وكذب ، أو ثبوت وعدم ثبوت، أو قاله أو لم يقله . بل نحيّد مفهوم الثبوت عن مسألة التصنيف، ومن هنا يقول ابن الصلاح:

(والصحيح ينتوع إلى متفق عليه ومختلف فيه ومشهور وغريب وبين ذلك)[١٦] فهو اصطلاح لأحاديث عدة تشترك بمواصفات واحدة،

ويقول ابن الصلاح كذلك (وقد يختلفون في صحة بعض الأحاديث لاختلافهم في وجود هذه الأوصاف فيه، أو لاختلافهم في اشتراط بعض هذه الأوصاف، كما في المرسل[١٧]، ومتى قالوا هذا حديث صحيح، فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس من شرطه أن يكون مقطوعاً به في نفس الأمر، إذ منه ما ينفرد بروايته عدل واحد، وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة على تلقيها بالقبول، وكذلك إذا قالوا في حديث غير صحيح، فليس ذلك قطعاً بأنه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صدقاً في نفس الأمر، وإنما المراد به أنه لم يصح إسناده على

[١٥] مقدمة ابن الصلاح تحقيق نور الدين عتر ج١ ص ١٤ ، ١٥
[١٦] نفس المرجع السابق
[١٧] ومرسل منه الصحابي سقط وقل غريب ما روى راو فقط

الشرط المذكور والله أعلم)[١٨] نفهم من كلام ابن الصلاح، أنهم لم يضعوا شرطاً من شروط الحديث أن يكون مقطوعاً به. وابن الصلاح بين لنا مقصود المصنفين من (الصحيح) ليس ثبوتاً أوعدم ثبوت.

ونفهم أيضاً أن لفظ (الصحيح) لا يفهم منه مفهوم المخالفة أنه ليس كل ما لم يصح – باصطلاح المصنفين للصحيح – كذباً، بدليل أن غير الصحيح الحسن والضعيف ليس كذباً ، فقط الموضوع هو الكذب.

إذاً الصحيح هو مرتبة من مراتب التصنيف – قوة– كما قصده واضعوه وليست تعني قبول الحديث من أجل العمل ورده، كما يفهمه شباب اليوم.

ويجب أن نعرف مقصد كل قوم باصطلاحهم لكلمة (صحيح) فأهل كل فن[١٩] أدرى باصطلاحهم، ولو قال أهل الحديث يُقَسّم الحديث إلى قوي وضعيف والحسن بينهما، ربما زال الإشكال والله أعلم.

أما الاقتراح الذي يجمع بين اصطلاح السلف ولغة العصر: أن نعطي الضعيف درجات من صفر إلى ثلاثين، والحسن إلى ستين، والصحيح إلى تسعين، والمتواتر إلى مئة.

فلو قيل هذا حديث صحيح قوته ٨٠ فإذا عارضه واحد فقط، تنزل درجته إلى ٧٩ وإذا عارضه غير واحد ينزل إلى ٧٥ وإذا زاد الكلام عليه تنزل رتبته أكثر وهكذا..

وكذلك الحسن والضعيف ، فلو قويت طرق الضعيف نعطيه مثلاً ٢٥ ولو صححه واحد يرتقي إلى ٢٦ ولو صححه غير واحد تزيد إلى ٢٨ وهكذا

---

[١٨] نفس المرجع السابق

[١٩] ويختلف تعريف كلمة (الصحيح) لغة وشرعاً وعرفاً فالصحيح من القراءات شاذّ لا يقبل، لأنه لا يقبل إلا المتواترفي القرآن، وقد يكون الصحيح هو الخطأ في اختبارات العلوم والرياضيات في فقرة (ضع صح أو خطأ)

فعندما توضع معايير، ويحسب حساب لكل شيء، كما في الجرح والتعديل مع الأخذ بعين الاعتبار آراء المتأخرين، نصل إلى تدريج كل حديث وتصنيفه بدرجة أو رقم، يأخذ حقه. ولا يُبخَس رأي ناقد من السلف أو الخلف.

ولعلنا نحلّ بهذا الاقتراح إشكالية الخلاف على تصحيح الحديث وتضعيفه: هذا يصحح وهذا يعترض، وذاك يضعّف وآخر يعترض. وبهذا الاقتراح يؤخذ برأي الموافق، ويؤخذ برأي المعترض. والفرق يكون بدرجات قليلة، لا يكون لها أثر في أمر العمل بالحديث ، وإنما في التصنيف فقط.

وانطلاقاً من هذا، نقترح تشكيل مجمع حديثيّ على غرار المجمع الفقهي ليقوم بهذه المهمة .

ونؤكد على أن الاصطلاحات في التصنيف شيء والعمل شيء آخر،

والاصطلاحات تمّت بناء على حسب الورود والتلقّي، أما العمل بناء على قبول الحديث ورده، وهل يصلح للعمل أم لا ؟ ويدخل في ذلك عوامل منها: الناسخ والمنسوخ والمجمل والمفصل والمطلق والمقيد وعمل الصحابي به والجمع بين حديثين متناقضين ... وغيرها كثير يعرفها أهل الاختصاص وفوق كل ذلك مسألة فهم النص أو إنزاله على الواقع،

أقول: إن مسألة العمل بالقرآن والسنة ليست كما يظنها البعض مفتوحة أبوابها لكل من هبّ ودبّ. فيها أوامر بسيطة تفهمها العامة وفيها مسائل تحتاج لأهل الاختصاص.

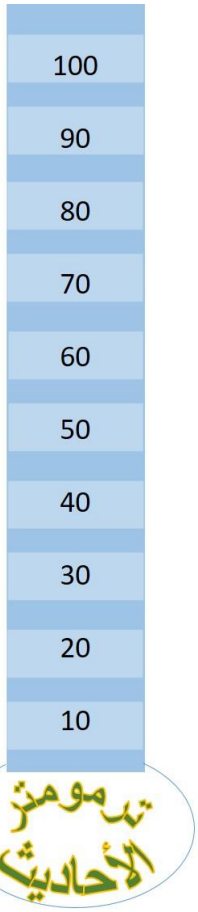

شكل (٣)

وهناك اقتراح آخر (ترمومتر الأحاديث) شكل (٣) مثل ترمومتر درجة الحرارة. نقول لكل الدرجات ولوكانت باردة وتحت الصفر(درجة حرارة) وسبق أن اقترحت (ترمومتر الذكاء) فليس هناك إنسان غبي وإنما مستويات في الذكاء تقوى وتضعف أو تتنوع. نقول درجة الذكاء كذا وكذا وإن كانت ضعيفة.

وكذلك (ترمومترالحديث) ليس من الضرورة أن نقول ضعيف وشديد الضعف. وإنما نصنف الحديث حسب قوته أو حسب (صحته) فتقول درجة صحته ١٥ وهذا درجة صحته ٧٥ وهذا درجة صحته ٩٥ وهكذا يعطيك "الترمومترالحديثي" درجة الحديث، ويفهم العربي وغير العربي مكانة الحديث فوراً في السنة. والله أعلم.